القوط وأسبانيا (الأندلس)

القوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمال أوروبا، وقوّضت صروح الإمبراطورية الرومانية، وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من إسكندناوة، وهي رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد.

ويذكر المؤرخ تاسيبتوس، أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني يسكنون شواطئ البلطيق الجنوبية، وأنّ قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودَر» وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس واحد.

وفي عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) ظهرت طلائع القوط في ولاية «راسيا»[١] الرومانية، وأغارت على بعض مدنها، وكان هذا نزوحهم الثاني، وقد استقروا حينئذ في إقليم «البوكرين» وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب، وخربوا ولاية فيريا[٢] الرومانية ثم تقدموا إلى قلب البلقان، فسار ديسيوس لقتالهم، ولكنه هُزم، وتفرق جيشه سنة (٢٥٠م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها فساداً وخربوها.

ولم ينقطع فسادهم ولا عيثهم، حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة، وردهم إلى أقاصي راسيا سنة (٣٢٢م) وفرض عليهم شروطًا فادحة، ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية، وهزمهم في سنة (٣٦٩م)، وفي سنة

---

(١) د/ عنان «دولة الإسلام في الأندلس»، كانت ولاية راسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر حاليًا.

(٢) تقع ولاية فيريا في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا حاليًا. المصدر السابق – الهامش جـ١ ص ٢٨.

(٣٧٥م) زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستنجدوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته، فأجابهم إلى ذلك، واستقروا حينًا في ولاية تراقية، ولكنهم ثاروا مرارًا من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم [١].

وفي عهد الإمبراطور هورنويوس، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثرًا بقيادة زعيمهم «الاريك»، وخربوا تراقية واليونان، ثم عبروا إلى إيطاليا وافتتحوا رومة ونهبوها سنة (٤١٠م).

ولكن زعيمهم «ألاريك» توفي في نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال، ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا في الجيش الإمبراطوري، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليه أو غاليس (جنوب فرنسا)[٢] وشمالي أسبانيا، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها، فيما بين نهري اللوار والجارون، واتخذوا «تولوز» عاصمة لهم، وأقطع الإمبراطور ملكهم مقاطعة «ثاليا» ليحكمها، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية، وعاون القوط (أو دولة القوط) على محاربة الوندال والآلان والسوابيين، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ابن «الأريك» على هزيمة آتيلا التتري وبرابرته الهون في موقعة شالون سنة (٤٥١م)، ثم عبر خلفه وأخوه «تيودريك الثاني» إلى أسبانيا؛ لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها، مشترطًا على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من أسبانيا لنفسه ولعقبه، وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم سنة (٤٥٦م)، وافتتح أسبانيا ما عدا ركنها الشمالي الغربي (جليقية) الذي استعصم به الوندال حينًا، ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها، وامتدّ ملكهم من اللوّار إلى شاطئ أسبانيا الجنوبي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الاثير جـ٤ ص٢٠٥.

ولكن الفرنج غزوهم من الشمال، وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل، فاستقروا في أسبانيا، واتخذوا طليطلة دار ملكهم، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظمًا وقوانين خاصة، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية، وكانوا أيضًا قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية، التي تقاسمت تراث رومة وأملاكها، ولبث القوط زهاء قرنين سادة لأسبانيا حتى الفتح الإسلامي(١).

أما وقت الفتح الإسلامي، فقد كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل، وكان المجتمع الأسباني يُعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزّقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار، ولم يكن القوط في الحقيقة أُمّة بمعنى الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، والحاكم والمحكوم، أمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أمّا سواد الشعب الأعظم، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزرّاع أشبه بالأرقّاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت.

وإلى جانب السادة والأشراف، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم تأثيرٌ شديدٌ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، و أن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقًا لمُثُل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثورات، واقتناء الزراع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تُجمع في يد فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة، وكل نِعَم الحرية والكرامة والاعتبار.

---

(١) د/ عنان جـ١.

هكذا كانت أسبانيا حينما افتتح العرب أفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس، وكان على عرش أسبانيا يومئذ الملك وتيزا خلف الملك إجيكا وولده، وكان يحكم مملكة مزّقها الخلاف، و شعبًا أضناه العسف، وتحمل بعض الروايات الأسبانية القديمة على وتيزا، وتصفه بأنه كان ملكًا خليعًا فاجرًا، مغرقًا في شهواته، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال، ويقول البعض الآخر أنه كان بالعكس ملكًا فاضلاً حَسَن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل.

ويقول د/ عنان [١]: «المرجح المتداول: أنه أحسن السيرة في بداية عهده، وردّ إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبّروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعًا، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية؛ لكي يحطم سلطان خصومه ويُجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلاّ ظمأً إلى الخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودرفريد الذي نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك في «بلاجيوش» ولد غاثيلا دوق كتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته، وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبدًا تحت نير الجور والإرهاق، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط.

وتقول الرواية النصرانية [٢]: إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامي من جنوب أسبانيا ورفعوا لواء الثورة، وأن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول، وإن تيودر مير قائد الأسطول القوطي هزم المسلمين في معركة

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» جـ١ ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٣.

بحرية كبيرة، وذلك في سنة (٧٠٨م)، وربما كان المقصود بهذه المعركة هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة (٨٩هـ - ٧٠٨م) وهي المعروفة بغزوة الأشراف، ولكن المسلمين لم يُهزموا عندئذ في أية موقعة بحرية[١].

وكان العرب قد طوقوا أسوار سبته معقل القوط في الضفة المقابلة من البحر، وأمدَّ وتيزا حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده، فانتهز خصومه فرصة ضعفه في الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى، وقاد الثورة عندئذ زعيم جريء هو ردريك ابن دوق «تيودرفريد» الذي فقأ وتيزا عيني أبيه، فكان يُحفّزه باعث الانتقام أيضًا، وكان يتزعم حزبًا قويًا، والتفّ حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشًا كبيرًا، ونادى بنفسه ملكًا.

ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة، وقد قيل إن وتيزا قُتل في هذا الصراع، وخلص الملك لمنافسه، و في رواية أخرى أن ردريك ظفر به وفقأ عينيه انتقامًا لأبيه، ويُقال أيضًا أنه ارتدّ إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وكذلك يختلف المؤرخون في تاريخ ولاية ردريك الملك، فيقول البعض، ومنهم ردريك الطليطلي: إنّه تولّى سنة (٧١١ م)، وحكم مع وتيزا قسمًا من أسبانيا، وأنه لما توفي وتيزا في سنة (٧١٣م) استأثر بالحكم مدى عام آخر حتى فتح أسبانيا.

وعلى أي حال فإن المعركة استمرت زمنًا بين ردريك وولدي وتيزا، وهما إيفا وسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة، والتف حولهما رجال الدين، ووصل أنصار الحكم القديم، وكان ردريك قويّ الجانب وافر الشجاعة والعزم، فاستطاع أن يُخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حينًا، ومع ذلك فقد قضى على عرش القوط أن يظل مضطربًا مهتزًا.

---

(١) المصدر السابق.

وذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق، محطّ أنظارهم ومساعيهم، وقد اختُلِفَ في أمر الكونت يوليان اختلافًا بيّنًا، فالروايات العربية القديمة تُشيد بذكره، وبالدور العظيم الذي أداه في الفتح[١]، ويُنكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الأسبان مثل «ماسدي» وغيره، ولكن الرواية العربية أرجح؛ لأن الكونت يوليان كان قوطيًا أسبانيًا، وأنّه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة، وقد أيدت الرواية العربية بعض الروايات النصرانية المتأخرة التي تقول أن الكونت يوليان كان حاكمًا لسبته، وهي يومئذ من أملاك العرش القوطي، وإنه كان رجلاً شجاعًا، ولكنه كان مغامرًا منتقمًا، وإنه كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط، وأنه كان قريبًا للملك وتيزا.

ولما نشب الخلاف الداخلي حول العرش، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم، وأنصار الملك وتيزا، وكان غنيًا شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم بالبحر، بعيدًا عن سلطة العرش، ويقبض على مفتاح أسبانيا (الأندلس) بحكمه لسبته والمضيق، وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه، فاتصل به ابنا وتيزا وباقي الزعماء الخوارج، واستقر الرأي على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت.

وهذا هو السبب التاريخي للتحالف الذي عُقد بين يوليان وموسى بن نصير، وانتهى بفتح العرب لأسبانيا، وقيل أن يوليان كان يعمل مع العرب بدافع الانتقام الشخصي أيضًا، فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تُدعى فلورندا أوكابا، أرسلها إلى بلاط طليطلة جريًا على رسوم ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم الفصائل والفرسان، فاستهوى جمالها الفتّان قلب ردريك، فاغتصبها وانتهك عفافها.

---

(١) «ابن الأثير» جـ٤، «نفح الطيب» جـ١، وغيره مثل ابن القوطية في «افتتاح الأندلس».

وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام، ونزع ردريك ذلك العرش الذي اغتصبه، فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه، رأى الفرصة سانحة للعمل، ولم يرَ خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح أسبانيا.

ومهما كان من أمر يوليان، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأسبانية، والقضاء على مملكة القوط.

obeikandl.com